التغيير في بنية محيطنا الاجتماعي

أ.بداوي محمد: جامعة تلمسان

الملخص:

لفهم مجتمعنا و بعض التصرفات و السلوكات الظاهرة فيه، لابد من معرفة الخلية الأولى فيه، كيف تشكلت؟ و ما هي المراحل التي مرت بها؟، فالتغيير الاجتماعي الذي شهدته بلادنا بسبب الاستعمار و التأثر بالثقافة الغربية والمقاومة و محاولة التثبيت بالثقافة العربية الإسلامية، ثم الاستقلال و محاولة البناء و التشييد أي الحضارة و التمدن و مرحلة العشرية السوداء و نزوح السكان من الأرياف إلى المدن. كلها جعلت من الأسرة الجزائرية تتغير من ممتدة إلى نووية و تعود لتتشكل ممتدة عند الأزمات، و هنا تظهر تلك الازدواجية بسبب التفتح على ثقافات أخرى أحيانا، و التثبيت بثقافة الأجداد أحيانا أخرى.

الكلمات المفتاحية:

التغيير الاجتماعي، العائلة الممتدة، الأسرة النووية، الهيمنة الذكورية، التنشئة الاجتماعية، التناقض.

البوتقة الثقافية بما تحمله من دين و عادات و قيم و معايير اجتماعية، جاءت بموروث يمنح للرجل أمام المرأة قدرا عال، فيما يخص علاقة الطرفين حين تشكيل الأسرة. حيث الرجل هو الأب، و رب الأسرة الأمر و الناهي، و يعود القرار الأخير له، هي مبادئ تلقاها الإنسان الجزائري أبا عن جد، من خلال التنشئة الاجتماعية التي تلقاها زيادة على اكتساب الحقيقة مع الزمن باكتشافه للفروق بين الجنسين.

و الثقافة من خلال العرف تُعتبر الثابت أو الأصل، لأنها تحدّد ما يجب أن يكون، و المعترف به من طرف المجتمع كونه صحيح و غير معاب، و ما لا يجب أن يكون ليعتبره المجتمع خطيئة، " هذا النموذج الجماعي مأخوذ من الطفولة، عبر سياق ملائم عن طريق العائلة، المدرسة القرآنية، العمل، الشعائر و الفلكلور"¹ لتكون فكرة هيمنة الرجل على المرأة مقبولة، و ظاهرة مستحبة لسيطرة الرجل على المرأة فتكون السلطة دائما في يده خاصة في المجتمعات التقليدية، و التي تظهر بقوة عند رب العائلة الممتدة و التي تضم عدة أجيال في بيت واحد، يعيشون على نمط اقتصادي تحت ولاء الأب أو الجد.

وكتيجة للتغيير الاجتماعي على كل الأصعدة، شهد أفراد المجتمع تحولا ملحوظا، فمن الجانب الاقتصادي تحزّر الابن و أصبح عمله خارج نطاق أبيه، أي عاملا أجيلا ما جعله يتحرّر و يشكل أسرة نووية، و الجانب الثقافي و الغزو للأفكار و العادات و القيم و المعايير الاجتماعية من خلال الفضائيات و عملية الشاqqف التي تحدث لسهول الاتصال في العالم، و كذا خروج المرأة للعمل و اكتسابها لأدوار عزّزت من منافسة الرجل على التسيير داخل البيت، إذا ما كان الزوج عاطلا و ضعيفا من الجانب المادي و الصحي، زيادة على اكتساب الأبناء مراكز اجتماعية أكبر ممن كان يملكها الأب.

عدة عوامل جعلت من بنية الأسرة الجزائرية تتغير و تصير نووية بعدما أن كانت ممتدة، حيث تقلّص عدد الأجيال في الأسرة الواحدة من أربع أجيال إلى ثلاثة أجيال و في كثير من الأحيان إلى جيلين في سقف واحد.

المتقاعدون ككبار في السن يعيشون حياة تغلب عليها الضعف في جوانب عدة، و هذا التحول من العمل إلى التقاعد يؤثر على صيرورة حياته داخل الأسرة كما تتهز مكانته بين أعضائها فيدخلون في صراع على السلطة كل واحد و موقعه، و نقاط قوته و ضعفه في هذا التنظيم. و الأسرة كجزء أساسي من المجتمع الجزائري ككل فهي تتأثر بالإطار العام الذي تطوّر فيه هذا المجتمع فمجتعنا عرف تغيرا سريعا و كبيرا خاصة في الفترة ما بعد الاستقلال و بعد التسعينات نتيجة التحولات العميقة، و تبعتها تحولات عميقة في العلاقات الاجتماعية الأسرية، و ظهور بنية أسرية حديثة في وظائفها و علاقات القرابة و الأدوار التي يمارسها أعضاء الأسرة، و الذي يساير نموذج التطور العالمي نحو الحدأة و التحضر، و سرعة الحراك الاجتماعي، فبدلا من النمط الزراعي و التضامن الموسع و الجماعي و الحياة المتسمة بالبساطة إلى حياة أكثر تعقيدا، تسيطر عليها الحاجة و المصلحة الفردية و بالتالي الفردانية كنتاج عن العمل الصناعي و التجارة الموسعة، فالعلاقات تسيّرّها و تبيكلها علاقات ذات أساس مادي و عمل مأجور دون مراعاة الجنس و العلاقات الإنسانية و القرابة و غيرها².

فهذا التغيير الذي مس المجتمع الجزائري فقد أخذ منه قدرا وافرا و نسبة كبيرة سمحت بتحويله لبنية الأسرة الجزائرية من الموسعة إلى النووية، و من التقليدي و النمط الأبوي في صيرورة العلاقات الاجتماعية لأعضاء الجماعة إلى الفردانية و ما يتبعها من تقلص أعضاء الأسرة و تغيير نمط الحياة بشكل شامل، و موقع المتقاعد المسن ضعيف الدخل و الحالة الصحية، و كثير المشاكل داخل هذا التنظيم بشكله الجديد.

I. النظام الأبوي للأسرة:

1. الهيمنة الذكورية:

منذ أقدم العصور كان الصراع بين الرجل و المرأة، و دائما يبحث كلاهما على فرض سلطته على الآخر أو تسيير أحدهما للآخر، و كانت مميزات الرجل من قوّة جسدية و امتلاكه للموارد المالية تعطيه أفضلية على المرأة، و لأننا مجتمع إسلامي في أغليته فقد حدّ الإسلام هذا الصراع، و نظّم طريقة التعامل بين الرجل و المرأة، فالقرار الأخير يعود إلى الرجل بعد المشورة مع الزوجة، و معظم القيم و المعايير الاجتماعية مصدرها الدين الإسلامي، ففي مجتمعا يعود اسم الابن إلى الأب و ليس الأم، مع هيمنة الذكور على الإناث في نمط و نظام اجتماعي معترف به من كل أفراد هذا المجتمع.

و يمكن أن يستغل الرجال الدين حسب فهمهم الخاص، و بما يخدم هيمتهم الذكورية على النساء بحسب رضاهم و تقبلهم لهذه الهيمنة، ف دائما المرتبة العليا للرجل على خلاف المرتبة الدنيا للمرأة و هي شيء عادي و يتقبله الجميع حتى المرأة بذاتها، " فالتنشئة الاجتماعية المختلفة تنظم الرجال على حب ألعاب السلطة، و النساء على حب الرجال الذين يمثلون الكاريزمية الذكورية..."³، فهذه الثقافة و الزخم الكبير من الأفكار و القيم و المعايير الاجتماعية تنتقل من جيل إلى جيل تفرض فيه و تسطر مكانة كل من الجنسين تجاه الآخر.

فالسلطة تكون للذكر الأكبر أي الأب، و إن غاب الأب فالابن الأكبر و هناك عبارة شهيرة تؤكد و تبين مكانة الذكر في العائلة العربية و الجزائرية و هي: " هذا رجل البيت " مشارا إلى الذكر حتى و إن كان صغيرا في السن، و بهذا و " بلا شك للعائلة يعود الدور الأساسي في إعادة إنتاج الهيمنة و النظرة الذكورية، ففي العائلة تفرض الخبرة المبكرة للتقسيم الجنسي للعمل و التصورات الشرعية لهذا التقسيم مضمون عبر الحق و مسجل في اللغة"⁴.

النظام الاجتماعي و من خلال العائلة يسطر أعمال الرجل مقابل أعمال تقوم بها النساء، و من خلال هذا التقسيم للأعمال، يكسب الرجل الهيمنة لأن هذه الأعمال صعبة و تتطلب مهارة و قوة و تعب و حنكة، فالطبيعة المورفولوجية مكنت الذكر من اكتساب هذه الهيمنة و توارثها للأجيال بكل قناعة من الجنسين، فالإضافة إلى الأدوار الاجتماعية التي يكون فيها الذكر حاميا و مدافعا على المرأة مقابل نسبة خضوع من طرف هذه الأخيرة.

بالنسبة لهته المجتمعات و المعروفة بصفة الذكورية فإن الحياة الاجتماعية بين الجنسين هي بمثابة سفينة يكون ربانها شخص واحد، و قادر على إيصالها إلى بر الأمان بما يتوفر عليه من قدرات معترف بها من طرف الجنس الآخر، فمن غير الممكن أن يكون هناك قائدين في سفينة واحدة، " ففي ما يخص إيديولوجية العائلة هي مجموعة القيم و المعايير الاجتماعية تتجسد في السلطة و الهيمنة الذكورية التي تُفرض على المرأة عن طريق العنف - أغلبيته رمزي -، دور يُنبث بحماسة الجماعة العصبية"⁵.

فسلطة الذكر على الأثني هي مطبقة بالعنف كما أشار إليه عدي الهواري، و قد يكون رمزي على المرأة و هذا العنف هو بمثابة حق للرجل أو أكثر من ذلك إثباتا لرجولته أمام المرأة و أمام المجتمع، و إن لم يطبق هذا العنف عليها، يلام و تهتّر مكانته داخل جماعته، فإن سلطة الرجال و شرفهم هما

الذان يقتضيان أن يعمل النساء في المنزل، و يجدون تبريره في كونهن ضعيفات غير قادرات على التصدي للأعداء.

2. النظام الأبوي في الجزائر:

عُرف النظام الأبوي منذ القديم و لقد سبقه نظام الأمومة، فكان الرجل لا يُعترف به كأب بل المرأة أو الأم هي التي يُنسب إليها الأبناء، و بدأ الرجل يأخذ مكانة عالية عند أول خطوة خطاها الإنسان لتقسيم العمل بين الجنسين، حيث استطاع الرجل السيطرة على الاقتصاد و طريقة الحياة في العشيرة و بعد فصل الرعي عن الزراعة، و ظهور القوى الإنتاجية و التبادل المنظم للملكية الخاصة و العبودية ساهم في ظهور النظام الأبوي و حلّ الزواج الثنائي محلّ الزواج الجماعي، و أصبح الزوج يُعترف به كأب للأطفال، و الأطفال و الزوجة ينتمون إليه بحق الملكية، و كانت العائلة تمثل وحدة اقتصادية فوق كل شيء.⁶

و قد اكتسب و بفعل عمليات اجتماعية معقدة على مركز و مرتبة عالية في العائلة نتيجة الإعاقة و توفير شروط الحياة للعائلة ككل، و مما يتعرّض له من مخاطر و ما تتطلبه من قوة و صلابة هذه الرعاية خاصة في الأزمنة الماضية، حيث كان الاتصال بالطبيعة مباشر مع نقص الوسائل، و لم يتطور الاقتصاد بالشكل الذي يكون فيه تقسيم العمل إلى حد كبير، مما جعل دوره في العائلة و سلطته فيها تُعزز، و احتكر اتخاذ القرار في العائلة و تسيير شؤونها.⁷

و المجتمعات العربية التي عرفت هذا النموذج أي النموذج الأبوي، فانساب الأولاد يكون للأب كما له كل الصلاحيات لإدارة شؤونها و تمثيلها خارج إطار المنزل، و يساعد على حفاظ هذا النمط العائلي الدين، " فالشريعة كلها أو على الأقل ما يتعلق بالمكانة الشخصية (زواج، طلاق، ميراث...) فهذا التصور للحق الديني بالنسبة للتقاليد القانونية مقتبسة من القرآن الذي يؤكد على الثقافة الأبوية و التي تُخضع الفرد للجماعة"⁸، و الدين أهم مصدر للثقافة بالنسبة للعائلة الجزائرية فيعتبر من الثوابت و يستعمله الرجال في أغلب الأحيان للحفاظ على مكانتهم، و مواجهة التغيرات الحاصلة في المجتمع و مجابهة ثقافات أخرى دخيلة، و تبقى الثقافة الأبوية مصدر لعدة قيم و معايير اجتماعية، زيادة على الإنتاج و الحفاظ على العرف الذي يسير عليه النظام الاجتماعي، و " مها التحولات السوسولوجية ما بعد الاستقلال، الثقافة الأبوية مازالت موجودة، أكثر رمزية و هي مطلقة في مصادرها للسيطرة على الشرف (النيف)⁹، الحياء، الحرمة"¹⁰.

و الرموز الاجتماعية للنموذج الأبوي متعددة أساسها الحفاظ على الشرف الذي تمثله في الغالب الأثني و نتيجة لضعفها في تصوّر الرجل فينوب عنها و يسيطر عليها بدافع الحماية، و قد يستعمل العنف لكسر أي تغيير يضر بمركزه، و تستعمل المرأة عدة وسائل للتخلص من هذا التسلّط من بينها العمل أو الزواج الذي يعدّ " طقساً انتقالياً مهماً تتخلص بموجبه المرأة من سلطة الأب، لكن ليس من سلطة الرجل أو الذكر لأنها سرعان ما تقع تحت سلطة الزوج الذي تعيش معه من جديد تجربة السلطة الأبوية"¹¹.

و تبقى العائلة الجزائرية في صراع يظهر أحيانا و يخفي أحيانا أخرى نتيجة صراع المرأة و الرجل لمحاولة المرأة للتغيير، و الرجل للحفاظ على الثبات، و رغم هذا تبقى العائلة و المجتمع العربي متشبثين بهذا النموذج، و " البطركية أهم ظاهرة تعيد إنتاجها الأسرة العربية عبر مراحل تطورها، و في مختلف المجتمعات العربية، بمختلف تشكيلاتها و في مدنها و أريافها، و ما يسود فيه من خطاب تربوي و تعليمي"¹².

لكن هذا النموذج يظهر بقوة في الأرياف، و تكون العائلة الممتدة الحاضن الرئيسي له، و المحافظة عليه من خلال تنشئة الأبناء في جو عائلي يُسيطر عليه الذكر الأكبر أي الجد أو الأب.

3. العائلة الممتدة:

الأسرة كركن أساسي في المجتمع و كقواعد أساسية لبنائه فهي تعطي صبغة و صورة عامة عمّا هو ظاهر في المجتمع، و قد قسم علماء الاجتماع المختصين في علم الاجتماع العائلي الأسرة إلى: نووية، و ممتدة. و " الأسرة الممتدة تشكل نمطاً شائعاً في المجتمعات البدائية، و المجتمعات غير الصناعية و هذه الأسرة عبارة عن جماعة متضامنة الملكية فيها عامة و السلطة لرئيس الأسرة أو الجد الأكبر أو بمعنى آخر هي الجماعة التي تتكون من الأسر المرتبطة سواء كان النسب فيها للرجل أو للمرأة، و يقيمون في مسكن واحد"¹³، فخصائص العائلة الممتدة أنها توجد في الأرياف أكثر من المدن، و أن الملكية العامة لوسائل الإنتاج تعود للجماعة تحت لواء الجد أو الأب، و في الغالب الإنتاج الزراعي الذي يفرض التعاون الجماعي في العمل نتيجة صعوبته، و قلة المكننة خاصة في الأزمان الماضية.

و يُشترط فيها الانصياع و الطاعة لكل أفراد العائلة حيث " يُخيم الجو الدكتاتوري على الأسرة الممتدة إذ أن الأب يحتل مرتبة اجتماعية أعلى جدا من منزلة الأم، و ينفرد باتخاذ الإجراءات و القرارات إزاء مستقبل الأسرة و الأطفال"¹⁴.

فالظاهرة المميّزة للعائلة الممتدة هي وجودهم في جماعة واحدة رغم تعدّد الأسر الزوجية، و كلهم يخضعون لمصدر واحد للإدارة و التسيير و التوجيه، و النهي و الأمر و حتى المساهمة في إعادة إنتاج المجتمع بالتحكم في مستقبل الأبناء.

و يجمع هذا التنظيم الاجتماعي عدّة أجيال يكون " رئيس العائلة هو الجد ما زال قويا، أو ابنه الكبير إن غاب، دوره هو توزيع الأعمال الزراعية بين مختلف خلايا المجموعة البيئية، الذي يوحد الإنتاج الاستهلاك، و الإقامة، و يؤمن حُسن التفاهم بين الأعضاء يؤمُّ الصلاة و يمثل المجموعة خارج البيت"¹⁵.

سيطرة شاملة و تعمّ كل أعضاء الأسرة، و تنظيم محكم خاضع للذكر الأكبر و الذي يتموقع على رأس هذه الأسرة الممتدة، نتيجة لامتلاكه للأرض و الوسائل التي تقوم عليها الزراعة رغم بساطتها، و كذا الاتصال الواسع لنظام القرابة و تمثيله و إشرافه على التضامن الآلي بين الأقارب.

يسمي محمد عاطف غيث الأسرة الممتدة بالعائلة، و هي " الجماعة التي تقيم في مسكن واحد و تتكون من الزوج و الزوجة و أولادها الذكور و الإناث غير المتزوجين، و الأولاد المتزوجين و أبنائهم و غيرهم من الأقارب كالعم أو العمة و الابنة و الأرمال الذين يقيمون في نفس المسكن، و يعيشون حياة اجتماعية اقتصادية واحدة تحت إشراف رئيس العائلة"¹⁶.

يمكن أن تتوسع العائلة حسب عاطف غيث لتشمل حتى الأقارب من العم و العمة مما يدل على تعدد الأجيال و الذين يقيمون في مسكن واحد و حياة اجتماعية و اقتصادية واحدة يقودها رئيس العائلة أي الجد أو الأب، و تظهر العائلة على عدة أشكال تختلف حسب النظام البنيوي لأعضائها و تشترك في مسكن واحد بحيث:

أ- تتكون الأسرة من ثلاث أو أربع أجيال، و تضم الأب و الأم و أولادها غير المتزوجين، و المتزوجين مع زوجاتهم و أطفالهم، و في كثير من الأحيان تمتد لتشمل أخت الأب الأرملة أو الغزباء مع أبويه المسنين، و هؤلاء يسكنون في منزل واحد أو في شقة واحدة ملحقة بالبيت الأصلي.

ب- الأسرة المركبة ترتبط بنظام تعدد الزوجات الذي يوجد في المجتمعات الإسلامية خاصة.

ج- الأسرة المشتركة هي تتكون في الغالب من أسرتين نوويتين أو أكثر ترتبط بعضها البعض من خلال خط الأب عادة، وأغلب هذه الأسر تتكون من أخ وزوجته وأطفالها، بالإضافة إلى أخ وزوجته وأطفالها في البيت واحد.

د- الأسرة الممتدة ويقصد بها تعدد الأزواج والزوجات خاصة في المجتمعات ذات الحضارة الإسلامية وفي القارة الإفريقية، أما تعدد الأزواج فهي ظاهرة نادرة في العالم.¹⁷

تفاعل أعضاء العائلة الممتدة يتم من خلال النظام البنوي الذي يكون فيه الأخذ بعين الاعتبار للعلاقة القرابية التي تربط فيما بينهم ضمن التزامات متبادلة تحت لواء رئيس العائلة، حيث تكون السلطة للذكر الأكبر أي الأب ثم الابن وهكذا، ثم الأم فالبنات حسب كبر السن.

II. مقوماته:

1. القيم والمعايير الاجتماعية:

يُحدّد المجتمع لنفسه معالم يعترف بها أفرادها، يتبعونها و يقفون عندها، وتظهر هذه الحدود كون الظاهرة الاجتماعية هي ظاهرة تمارس ضغطاً على الأفراد الخارجين على المنهج الاجتماعي الذي يؤمن به الجميع ويتكون من جملة من المعايير والقيم الاجتماعية، فهي " إدراك الصواب والخطأ، الحلال والحرام، الخير والشر، إدراك منبعه شعوري أو فطري منبعث في الشخصية الإنسانية و يستند إليه المرء في الحكم على المواقف و اتخاذ القرارات بشأن مواضيع الاختيار "¹⁸، فهذا الإدراك يضع الفيصل ما بين هو مقبول وغير مقبول، و ما هو مستحسن و ما هو مذموم من باقي المجتمع، و تعتبر الشخصية الإنسانية في هذه الحالة كمرآة تعكس كل ما غرسه الأولياء في أبنائهم.

هي بمثابة توريث للمنظومة الاجتماعية لجملة من الرموز الثقافية من جيل إلى جيل، و يذهب دافيز (DAVIZE) إلى أكثر من ذلك، " فعن طريق الاعتقاد و الشعائر تتصل الغايات العامة و القيم بعالم تخيلي يرمز إليه بالموضوعات المقدسة الثانية، و هذا العالم بدوره يتصل بطريقة معقولة بالحقائق و التجارب الخاصة بحياة الفرد "¹⁹، ليعتبر دافيز جملة القيم و المعايير الاجتماعية كعالم خيالي، و يضيف عليه صفة القدسية أي أنه عالم يخرج عن الطبيعة و يعطيه بعد ديني، و هذا البعد الديني تؤكد الممارسات و التجارب التي يعيشها الفرد في حياته مع اكتسابه لما هو سليم و ما هو صواب، و ما هو خطأ معاب.

فهذه القوانين الاجتماعية نتيجة اندماج كل من المعتقدات و التجارب الدينية بالاعتدال على الفطرة الإنسانية، و لهذه القيم تأثير على الأفراد من خلال هيكله المنظومات الاجتماعية، و إعطاء الحق لهذا و منعه عن ذلك، بداية من أصغر وحدة في المجتمع ألا و هي الأسرة و من " المعروف أن المعايير الاجتماعية تحدد الشخص الذي بيده السلطة ففي بعض المجتمعات تمنح السلطة للزوج و في بعضها الآخر تبقى مع الذكر المسن كما هو الحال في الأسرة الممتدة، و في بعض الأحيان تكون السلطة في يد فرد معين فإن الأفراد الآخرين يستطيعون التأثير حيث يمارسون الضغط على الشخص الذي بيده السلطة " ²⁰. فمن خلال هذه القيم و المعايير يتمتع فرد معين بسلطة لا يمكن أن تمنح لغيره حسب العرف، و حتى و إن أمكن الأعضاء الآخرون بلوغ السلطة فلا يستطيعون و يكتفون بالتأثير على صاحبها، و تصل في كثير من الأحيان حتى تصبح أن تظهر بشكل رمزي دون أن تنتقل بشكل كامل لأفراد غير شرعيين لهذه السلطة من طرف القيم و المعايير الاجتماعية، " ففي الجزائر قسم كبير من الناس يستمر في العيش حسب المعايير التقليدية، أهمية العائلة كبنية اجتماعية تسمح و تتميز في الغالب بحماية الآباء في قلب الخلية العائلية " ²¹، و من خلال المعايير الاجتماعية للعائلة التقليدية تضمن للآباء المسنين الرعاية، و الحماية الكاملة، و عدم التفريط من طرف الأبناء، و عندما تقول المعايير تقول أن المجتمع بصفة عامة يحرص على تطبيقها، و لا يفكر أحد في الخروج عن هذه المبادئ، و بهذا تظهر " الأسرة كمؤسسة اجتماعية تنظمها معايير، تلك المعايير التي تستند إلى مجموعة من القيم، و هذه القيم تنتمي و تستند قوتها من منظومة ثقافية معينة " ²².

دائماً تعود القيم و المعايير الاجتماعية إلى منظومة ثقافية كبيرة، تكون كمرجع ثابت و متغير في نفس الوقت، و حسب متطلبات و ضغوطات الحياة.

2. الثقافة و الأسرة:

يكون التفاعل بين أفراد المجتمع من خلال الاتصال ضمن جملة من القيم و المعايير الاجتماعية و كذا العرف في قالب من الضغط الاجتماعي الذي يمارسه المجتمع على الأفراد، ليحدد التصرفات اللائقة و المباحة، و التي ليست لائقة و غير مباحة، و " هناك طريقتين يتحدد عن طريقها سلوك الكائنات الأول من خلال الوراثة و الثاني التعلم من الجماعة ... و السلوك الذي ينتقل من جيل إلى جيل يستمى الثقافة " ²³، من هنا تظهر ضرورة التربية و تلقين الأفكار من جيل إلى جيل، هته الأفكار التي تتحول

إلى ممارسات و تحددها، و ثلقت بشكل مباشر أي بالحديث عن طريق الأمر و النهي، أو عن طريق التقليد من طرف الأبناء للأولياء و باقي أفراد المجتمع.

فلا بد أن تكون الجماعة الناقلة للأفكار و الثقافة بمثابة قدوة للأجيال النازلة، ليكون الاعتقاد بالثقافة المورثة بكل ثقة و إيمان راسخ، و لكن العرف يبقى أكثر تأثيرا، و هو " الطرق العامة المشتركة التي يُنظر إليها على أنها أكثر صدقا و سلامة من العادات الشعبية، و من مميزات العرف أنه يعطي وثوقا للفرد كما يفرض عقابا صارما في حالة الاعتداء عليه، لأن المجتمع ينظر إلى الاعتداء على العرف على أنه مصدر خطر على الآخرين"²⁴.

يكون العرف بمثابة الميزان الذي نقيس به الصواب و الخطأ في الحياة اليومية، و النظام الاجتماعي و من خرج عن هذا العرف سيضر نفسه، و يضر المجتمع ككل لهذا يتدخل جميع أفراد المجتمع لتثبيته و فرضه ليسير المجتمع على ما يرام، فهي القوانين التي تحكم على الأمور و تحرك الناس باقتناع منهم و إيمانا بأنّها تحميهم.

و " قد يكون نسق القيم في الثقافة مقدسا أو غير مقدسا، فإذا كان مقدسا تميّزت الثقافة بالنزعات المحافظة و الثبات و الحفاظ على التقاليد و الإجابات الموروثة لكل سؤال أو استفسار، و ليس هناك سبيل لاعتبار أي شيء وسيلة لغاية عملية، و لهذا كان الانحراف عن السلوك التقليدي مفضيا إلى العقاب الصارم، أما إذا كان نسق القيم في الثقافة غير مقدس، فإن تقييم الأفكار و الأشياء و الناس يكون على أساس نفعي، و في مثل هذه الثقافة يستقبل الناس التغيير استقبالا حسنا"²⁵، و التغيير الثقافي يكون ببطء و يستغرق وقتا كبيرا، فقداسة و مكانة القيم و المعايير الاجتماعية يمكن أن تنقص، و يصبح هناك إمكانية للتثاقف و استقبال قيم و معايير ثقافية أخرى، خارجة عن المنظومة الثقافية لبلد معين و منطقة و جماعة معينة، وهذا يمس الأساطير و التقاليد أكثر من القيم و المعايير الاجتماعية.

و " الملاحظ فيما يخص المجتمع الجزائري هو أنه يجمع بين المجتمع التقليدي و المجتمع الحديث حيث يوجد العديد من التناقضات، فمن جهة نجده متفتح على الخارج تفتحا كبيرا بحكم ماضيه و موقعه، و من جهة أخرى مغلق منطوي على نفسه، إنه مجتمع تتجاذبه ثقافة المشرق من جهة و ثقافة الغرب من جهة أخرى، الأصالة من جهة و الحداثة من جهة أخرى"²⁶، كلها مؤشرات عملت على تقبل الثقافات الأخرى، و سهولة التغيير، فالتفتح على العالم الحديث و الصناعي و المشرق العربي، و

تشبته بالأصالة يفسر بعض المجالات التي شهدت تغييرا سريعا و مجالات أخرى بقيت محافظة، وذلك حسب المناطق و حسب كمية و نوعية الاتصال مع بلدان الخارج، و نوعية المنطقة إن كانت ريفية أو حضرية.

و تبقى " الأسرة هي عربة الوعي الاجتماعي و التراث القومي و الحضاري، فهي التي تنقل هذا التراث من جيل إلى جيل و هي مصدر العادات و التقاليد، و العرف و قواعد السلوك و الآداب العامة، و هي دعامة الدين و الوصية على طقوسه و وصاياه، و يرجع إليها الفضل في القيام بأهم وظيفة اجتماعية و هي عملية التنشئة الاجتماعية"²⁷، و تكون التنشئة الاجتماعية بتوريث معتقدات الأمة من خلال دينها تقاليدها و تاريخها، عرفها و أخلاقها، و غرس ثقافة خاصة بالمجتمع مقابل ثقافات أخرى، فإن ذهبت ثقافة مجتمع ما فإنه يتعرض للمسح، وكذا قابلية الاستعمار حسب مالك بن نبي.

3. التنشئة الاجتماعية:

كل مجتمع له خصائص و مميزات يُعرف بها عن مجتمعات أخرى، و يفرق بين ما هو غريب و ما بين هو متأصل و ينتمي إلى الجماعة الأصلية من خلال شفرة ثقافية موروثه أبا عن جد تلقن عبر الأجيال عن طريق التنشئة الاجتماعية للأطفال و هي " العمليات التي يتم من خلالها إعداد الطفل ليأخذ مكانه في الجماعة التي ولد فيها ... تعليم عادات الجماعة و فهمها و التكيف معها"²⁸، و الاندماج الكلي في مجموعة ثقافية تعترف بقيم و معايير اجتماعية، و تحتكم لعرف و لا تخرج عن قواعده التي تسيّر و تضمن صيرورة هذه الجماعة.

و تضمن كذلك التصرف و الفعل التقليدي للأجيال النازلة، و الذي لا يرافقه التفكير العقلاني، فيقوم الفرد الفاعل بالأعمال و النشاطات دون أي مناقشة و لا حساب، و بمعزل عن تفكير ذاتي، فهو نشاط مؤيد من الجماعة و نتيجة لطاعة مجموعة من الأوامر أيديتها العادات و التقاليد المتوارثة، ليصبح الفرد يتقبل أعمالا و يرفض أخرى بصفة آلية تلقائية.²⁹

و تتميز التنشئة الاجتماعية بالخصائص التالية:

أ- عملية تعلم اجتماعي يسلم فيها الفرد بالتفاعل الاجتماعي، و أدواره الاجتماعية، و المعايير التي تحدّد هذه الأدوار، و يكسب الاتجاهات النفسية، و الأنماط السلوكية التي توافق عليها الجماعة و يرتضيها المجتمع.

ب- عملية نمو يتحول خلالها الفرد من طفل يعتمد على غيره متركزا حول ذاته، لا يستهدف في حياته إلا إشباع حاجاته الفسيولوجية، إلى فرد يدرك معنى المسؤولية الاجتماعية و يتحملها، و معنى الفردانية و الاستقلال قادرا على ضبط انفعالاته و التحكم في إشباع حاجياته بما يتفق و المعايير الاجتماعية.

ج- عملية فردية و نفسية، بالإضافة إلى كونها عملية اجتماعية في الوقت نفسه.

د- عملية مستمرة لا تقتصر فقط على الطفولة و لكنها تستمر أيضا خلال مراحل العمر المختلفة من الطفولة إلى المراهقة و الرشد و حتى الشيخوخة.

هـ- عملية دينامية تتضمن التفاعل و التغيير، فالفرد في تفاعله مع أفراد الجماعة يأخذ و يعطي فيما يخص المعايير و الأدوار الاجتماعية و الاتجاهات النفسية.

و- عملية معقدة متشعبة تستهدف محمات كبيرة وتتوسل بأشياء و وسائل كثيرة لتحقيق ما تهدف إليه³⁰

و تتم هذه العملية بصفة أولية و مباشرة من طرف الأولياء، و لكن كنتيجة للتطور و التغيير الاجتماعي الحاصل على مستوى أغلب المجتمعات في ظل العولمة و " الضغوط الاقتصادية و المهنية و السعي وراء النجاح سواء كان ماديا أو اجتماعيا يؤدي إلى التغيب المتكرر للأب عن الأسرة و الحياة الزوجية، لم تعد هذه الوضعية مقصورة على الرجل بل طالت كثيرا من النساء العاملات و "31، ما أدى إلى ظهور مؤسسات رسمية كدور الحضانة، ومربيات داخل البيوت و ترك الطفل عند الخادمة أحيانا، مما نتج عنه التراجع و الآثار السلبية في جميع الحالات الفردية، الأسرية، و في المجتمع، عكس التنشئة التي يحملها على عاتقهم كل من الأب و الأم، و " مع غياب مؤسسات الرعاية الاجتماعية فإن الأبناء ينشئون ليشعروا بالذنب إذا ما اضطروا لإدارة ظهورهم إلى أي من أقاربهم و خاصة والديهم، و مثل هذه التنشئة تتم خلال التربية الدينية حيث يتعلم الابن أن طاعة و مساعدته لوالديه هي جزء من الواجب الديني، و بالتالي فإنه من المتوقع أن تكون الروابط بين الأبناء و والديهم روابط قوية جدا "32.

التنشئة الاجتماعية اليوم هي النظام الاجتماعي في الغد، فمن خلالها تدريب الأبناء على المبادئ الأساسية و الأدوار المقبلة، كالمودج الأبوي السلطوي السائد في غالبية المجتمعات العربية، و الذي يعتمد مقومات لعل أهمها:

- أن الرجل الحقيقي هو الذي يفعل و ليس موضوعا للفعل، بمعنى أنه يفرض شروطه على الآخرين و يكون عنيقا في التعبير عن رغباته و حاجاته، و في السعي لتحقيق أهدافه.
- أن الرجل الحقيقي هو رب العائلة، هو المعيل لأهله و لبيته، و له كامل الحق في استعمال موارده حسب ما يراه لائقا و يحلو له.
- أن الرجل الحقيقي قوي لا يعترف بالهزيمة بسهولة لأخطائه، و قد لا يعترف إطلاقا، لا يساوره الشك و التردد لأنها من صفات الإنسان الضعيف.
- كما التعبير عن العواطف و إظهار المشاعر ضعف ينبغي تفاديها و لذلك فالرجل الحقيقي يعير اهتماما قليلا لمشاعر و أحاسيس شريكه في الحياة.³³
- بهذه المعايير أو التوصيات يورث النموذج و النظام الأبوي في التسيير، و تحديد دور الرجل أو الذكر على أنه المهيمن على الأنثى، و المسير و على رأس الأسرة، له السلطة، الأمر و لا يؤمر عليه.

III. عوامل التغير في البنية الأسرية:

1. التغير الاجتماعي:

- في السنوات الأولى من الاستقلال، كانت الجزائر تعتمد على الزراعة في اقتصادها الوطني، و هذا الاتجاه كان له تأثير من الناحية الاجتماعية خاصة بما يتعلق بالأسرة الموسعة، فالشباب تابع لأسرته و أبيه و ذلك لأن هذا الأخير لا يملك وسائل الإنتاج رغم بساطتها، و الأرض المصدر الرئيسي للربح. و مع التطورات التي شهدتها الجزائر بعد الاستقلال تحرر الشباب و خرج للعمل بعيدا عن العائلة ليكون أسرة نووية فيما بعد، و رغم هذه التطورات إلا أنه وقفت أمامه عدة عوائق سببت في بطنه و تثبيطه أحيانا، و حصرها أوبرن (W.OBURN) كما يلي:
- أ- هناك ميل في كل ثقافة للإبقاء على القديم، و بقاء القديم على هذا النحو عقبة كبرى أمام التغيير.
 - ب- كثير من التغيرات تحدث نتيجة لتنظيم الجهود الإصلاحية و تخطيطها، و هذه بدورها تتطلب تكاليف كثيرة، و كذلك كانت التكاليف الاقتصادية في بعض الأحيان عقبة في طريق التغير.
 - ج- الجهل و عدم معرفة التجديد و الاختراع أو طريقة استخدامه يؤدي إلى رفضه.
 - د- الزعة المحافظة عند كبار السن.
 - هـ- العادات و العقليات المستقرة على نحو ما و العقبات الطبيعية في تغيير العادات.³⁴

لا يكون التغيير في ليلة و ضحاها بل يتطلب عدة سنوات، و بطئ كبير إذا اعترضه عوائق و عقليات تقليدية لها آليات للحفاظ على ثقافتها الخاصة، و ليست منفتحة على الثقافات الأخرى، إلا أنه " تشير العديد من الدراسات على أن الحفاظ على تماسك الأسرة في الماضي تتحكم فيه عوامل خارجية مثل القانون، و الرأي العام، و سلطة الأب، أما اليوم فإن وحدة الأسرة تعتمد بالدرجة الأولى على العفو المتبادل و الرقة. إن الفرق بين النموذجين يعكس طبيعة التغيرات التي عرفتها المجتمعات الإنسانية "35.

و بهذا تغيرت أساليب الحفاظ على التقليدية بعدما تحزرت المجتمعات إلى حد ما من التعصب، و فرض القوانين التي تعيق التغيير، مما أدى إلى تعدد الأدوار بالنسبة لأعضاء الأسرة الواحدة و جعل سلطة الأب تتراجع إلى الرمزية، و " العائلة الجزائرية المعاصرة تحمل تناقضا من جهة قيم العائلة التقليدية مازالت نشطة في الذاكرة الجماعية و أغلبها مثالي، و من جهة أخرى التحولات السوسولوجية تقدم ولادة لأشكال معايشة جديدة التي لم تتبلور بثبات "36، مما يفسر أن الأسرة تدخل في مجال الأخذ و الرد في ميدان التغيير فعندما تتاح الفرصة و الظروف تمارس التغيير، و عندما تتأزم الأمور تعود إلى شكلها الأول التقليدي لأنها بقيت كمرجعية في الذاكرة و نظام اجتماعي نموذجي.

و بتحسن الظروف في المجتمع الجزائري بعد الاستقلال، و ارتفاع سعر البترول أصبحت " العائلات التي كانت بالضرورة تقليدية و ممتدة، و مميزة للمجتمع الريفي أصبحت بنسبة: 3/2 عائلات نووية "37. حدثت عدة تغيرات اجتماعية التي ضربت في عمق المجتمع الجزائري، و أثرت بصفة جلية على شكل و وظائف الأسرة و أعطت صورة عامة بنمط مغاير لما عهدته الخلية الأساسية في المجتمع، و العامل الأساسي و المؤثر في الأسرة الجزائرية هو خروج المرأة للعمل كنتيجة منطقية للفرصة المتاحة للتعليم المتساوية بين الجنسين، و اشتداد و ضيق الأسرة من الناحية المادية مما جعل المرأة و الزوجة تعمل و تكسب مورد مالي ما يسمح بتخطيط ميزانية الأسرة و اتخاذ القرارات.

و يظهر التغيير في الكم الهائل من وسائل الاتصال و انتشار المميزات الحضرية، فظاهرة التحضر أدت إلى نقص في عدد أفراد الأسرة، و كذا تغير في دور الزوجة و تقترن مسؤولية و رعاية الأسرة و التخطيط لمستقبلها.38

الزيادة في التحضر أي الزيادة في المطالب، و الدخول إلى عالم الاستهلاك و الكماليات مما يتطلب إمكانيات مالية كبيرة و وظائف أخرى فتضطر المرأة للخروج من البيت لقضاء بعض الحاجيات بدلا من خروج الزوج لأنه لا يملك الوقت لانشغاله بالوقت المكثف، زيادة على " نمو التنظيم البيروقراطي

الرسمي خاصة الدولة و مؤسساتها المختلفة و تركيز هذا التنظيم على الكفاءة الإنتاجية من خلال التخصص قد أخذ العديد من وظائف الأسرة التقليدية خاصة الوظيفة الإنتاجية و الحماية، و الوظيفة التربوية و جعلها محور عمل مؤسسات رسمية متخصصة و بالتالي كان البناء الاجتماعي للأسرة أن يُعدّل للتكيف مع مثل هذه التغيرات "39.

فقدت العائلة عدة وظائف كانت تحتكرها مع تطور المؤسسات الرسمية و تعددها، تعددت الأدوار بالنسبة للرجل و المرأة، و كسبت مكانة اجتماعية و أصبحت سلطة و تسييره للأسرة في تراجع.

2. عوامل تغيير النمط الأسري:

تغيير العائلة الممتدة و المعتمدة على الزراعة و السكن الريفي إلى الأسرة النووية أو الزوجية، حيث لا تظم عددا كبيرا من الرجال و النساء، و لم يأت هذا التغيير هكذا صدفة و بشكل مباشر، و لكن كان نتيجة عدة عوامل ساهمت في الشكل الأسري الجديد و منها:

أ- العامل الاقتصادي: من أهم العوامل الذي أدى إلى تغيير نمط الأسرة كنتيجة " للاستقلالية الاقتصادية للأسرة بسبب الاعتماد على العمل المأجور الذي وفره التصنيع و التحديث و التحضر "40 فالتخلي عن الأرض، و بالتالي التخلي عن العمل الزراعي، و تربية الحيوانات، و العمل في القطاع الثاني أي القطاع الصناعي و العمل المأجور، فيكون ليس من الضروري التكتل بعدد كبير في أسرة واحدة ممتدة.

و مع التصنيف الديموغرافي للمجتمع الجزائري و احتوائه على نسبة كبيرة من الشباب، ساعد على زيادة الهجرة من الريف إلى المدن للتحرر من سيطرة الأب، و البحث عن المستقبل الخاص بهم، و بدأت تظهر الأسرة النووية حتى في المناطق الريفية بوجود أعضاء من المجتمع الريفي الذين ليس لهم أرض خاصة بهم و بالتالي ظهور بعض الحرف، و الابتعاد عن العمل الزراعي، كما يعود العمل الصناعي على هذه المناطق بتسهيل الحياة المعاشة، بتواجد المواد المصنعة و الوسائل الحديثة، و الابتعاد عن الاتصال المباشر بالطبيعة و كذا التقليل من اليد العاملة في القطاع الأول، " فالأعمال المنزلية التّصامُيئة للأسرة كلما و فرتها مؤسسات و هيئات حديثة مستقلة كلما اتجهت نحو الأسرة النووية، و تراجعت الأسرة الممتدة و المتسعة و العكس صحيح "41، إن لم تتوفر ذهبت الأسرة و اعتمدت على علاقات القرابة، و شكل كبير من التضامن العائلي لباقي أعضاء الأسرة، مما يفرض عليهم الإقامة في بيت واحد، و الاتصال المباشر لتحدي صعوبة العيش.

ب- العامل الاجتماعي الثقافي:

الجانب الثقافي من الجوانب المهمة في حياة أفراد الأسرة، و التي تفرض نمط معين من التصرفات و السلوكيات التي هي مرغوبة أو مفروضة من طرف المجتمع، و ممن يحيطون بهم عن قرب، و الأسرة الجزائرية كان المصدر الأول للقيم و المعايير الثقافية الممنهجة لشكل الحياة و نوعية العلاقات، و تأتي في المرتبة الثانية ثقافة التكافل الاجتماعي، و أخيرا ثقافة التعايش.

تاريخيا نسبة التحضر في الجزائر كانت بنسب ضعيفة دليل على الحياة الأسرية كانت حياة ريفية بدوية في أغلبها، و تعتمد على النمط الزراعي و روح الجماعة و التضامن الآلي، و يبقى التحضر و الحدائة شكل جديد على الأسر الجزائرية لأنها تحمل ثقافة العائلات الممتدة حتى و لو كانت أسر نووية.

فالعيش بالطريقة التقليدية خاصة تعدد أعضاء العائلة بشكلها الموسع شيء مقبول و مألوف، أما البعد الديني فهو مستنبط من الدين الإسلامي الذي يحث على برّ الوالدين و الإحسان إلى الأقارب، و صلة الرحم، فالدين لا يُحدّد نمط الأسرة و لكن بعض الأفراد من خلال ثقافة دينية تجذب العيش في ظروف تقليدية، و التي تسمح لهم بالتقرب من الله و اعتبار عدة أمور أنها من باب الدين، فمثلا الزواج المبكر للأبناء لتحسينهم نتيجة اعتقاد و إيمان ديني مما يساهم في تشكيل أسر ممتدة مع صغر الابن و عدم إمكانيته من تأمين بيت منفرد و مستقل عن والديه.⁴² هذا الاستعداد الثقافي لتقبل الأسرة الممتدة يفسر تشكيلها و بنائها بعد أن تكون أسر نووية ذلك بعد ضغوط و أحداث لا تسمح بالاستقلالية للأبناء، فتشهد الأسرة الجزائرية تفكك و انفصال الأسرة الزوجية عن الممتدة ثم تتركب عند زواج أبنائها في ظروف خاصة.

ج- العامل الديموغرافي:

أول ما نتكلم عن الأسرة يتبادر إلى الذهن عدد الذين فيما بعد سيكونون أسر، فالأسرة الجزائرية و بحكم الأصل الريفي التقليدي كان عدد الأبناء يتفاخر به في العائلة، و الإنجاب عامل من عوامل تعدد الزوجات للرجل الواحد، و مع العدد الكبير للأبناء و مع الظروف القاسية الاقتصادية منها و الاجتماعية فإن استقلال أحد الأبناء و تشكيله لأسرة نووية يبقى الإخوة المتزوجين الآخرين منتقلين إلى الأسرة الممتدة و تحت لواء الأب.

أما في الأسر الحديثة و نتيجة البطالة، و تدهور الأوضاع الاقتصادية و أزمة السكن، و تأخر سن الزواج يعمد الأزواج إلى تنظيم الإنجاب فحسب الإحصاءات التي قام بها الديوان الوطني للإحصائيات ما بين 2006-2008 قدرت زيادة السكان ب: 3 آلاف نسمة⁴³، و حتى اليوم تبقى الزيادة الطبيعية للنمو السكاني مرتفعة، و لكنها شهدت انخفاض بالمقارنة بالسنوات الأولى من الاستقلال.

د- زيادة نسبة التحضر:

الملاحظ في العالم بصفة عامة كبر المدن و تضخمها، و تراجع المجتمعات الريفية و تقلصها كنتيجة للحدادة التي فرضتها الصناعة، و رغبة تحضر الشباب من سلطة الأب في المجتمع الجزائري، كما سببت في النزوح الريفي ظواهر أخرى مثل الاستعمار الفرنسي، و قيام ثورة التحرير ضده و تمركزها في الجبال و القهر الذي سلطه على أصحاب المناطق الجبلية و الريفية من طرف الاستعمار كمدغمين للثورة و بعد الاستقلال و محاولة البناء الاقتصادي، هجر الجزائريون لتوقر العمل في المدن، و سهولة العيش فيها كما يضنون، و بعد التسعينات ظاهرة الإرهاب الذي دام عشرية كاملة ما سبب في زحف عدد كبير من الريف إلى المدينة، نتيجة الخوف و البحث عن الأمن، كلها أسباب أدت إلى زيادة السكان في المدن و بالتالي زيادة التحضر.

و ما يساهم في التغيير الأسري ما تعرفه الأسر اليوم من تراجع نسبة الزواج، و ارتفاع معدلات الاستمرار في التعليم حتى المراحل العليا، ارتفاع معدلات الهجرة بين النساء سواء داخل البلد أو خارجه وكذلك ارتفاع نسبة النساء اللواتي يشغلن مناصب عليا في الإدارات و الهيئات الحكومية مثل مؤسسات التعليم و الصحة و في قطاع الأعمال⁴⁴.

كلها عوامل و مؤشرات تعمل على تغيير نمط و بنية الأسرة لتتكيف مع هذه المتطلبات الجديدة من احترام و أوقات العمل للمرأة، و مسؤولياتها تجاه العمل، و تبادلها لثقافات مختلفة عند خروجها و تنقلها و تشبعها بالحياة الحضرية المعروفة بتعقيدها و صعوبتها، و تعدد أدوارها.

3. تغير الأدوار:

يقوم المجتمع بتحديد الأدوار الاجتماعية من خلال التنشئة الاجتماعية، و توريث قيم و معايير اجتماعية و عن طريق تقليد الأبناء للآباء و الكبار بصفة عامة و تقمص أدوار، سنيارسونها في المستقبل و حسب جنسهم و سنهم تتغير هذه الأدوار، و من خلال هذه الأدوار يمكن أن نعرف و

نضع الحقوق والواجبات، والتي تتأثر بالتغير الثقافي والاجتماعي حتى نصل إلى البلدان المتطورة و المتحضرة بنسبة كبيرة التي تتميز باختلاط هذه الأدوار.

فبعد اقتصار العمل على الرجل، خرجت المرأة إلى العمل بعيدا عن الفضاء المنزلي و عرفت العمل المأجور كنتيجة للأوضاع الاقتصادية المزرية، إضافة إلى تعلم المرأة الجزائرية، و بذلك الرغبة في ممارسة تثبت بها المرأة مكاتها و التفتح على أدوار أخرى مربوطة بالعمل، و العلاقات المهنية كما أصبح الرجال يمارسون أعمالا كانت تقتصر على النساء لقسوة العيش.⁴⁵

فأصبحت المرأة تعيل أفراد الأسرة في حالة عجز الزوج عن العمل أو كان مورده قليلا، و في المقابل يقوم الرجل بنشاطات داخل البيت كإعداد الطعام، و ترتيبه و لكن المجتمع لم يعرف هذه الظاهرة بهذه الحدة إلا نادرا، و في المدن الأكثر تحضرا، فما زالت الثقافة الأبوية موجودة و لها تأثير في أفراد المجتمع، فظاهرة عمل المرأة العربية خارج المنزل تتميز بمميزات رئيسية هي:

- أنها ظاهرة حضرية إلى حد كبير (العمل في المدينة).

- التركيز على مهن معينة تشبه إلى حد كبير المهنة التقليدية للمرأة كرت بيت.

- إن نسبة مساهمة النساء في القوى العاملة منخفضة.

- الدور الثنائي للمرأة.⁴⁶ و مع زيادة التحضر و تعقيد الحياة الاجتماعية و الاقتصادية، و ظهور الفردانية و تعدد الاتجاهات الفردية و تفشي العلاقات الرسمية و التعاقدية كنتيجة للعمل الصناعي و تطوّر التجارة و المنافسة لا بد للتنظيم الأسري أن يتحرك أفراد كفاعلين، و يمارسون أدوارا أخرى لمسايرة الحياة و التأقلم مع صيرورة التغيير الاجتماعي.⁴⁷

العامل الأساسي و المؤدي إلى تغيير الأدوار الاجتماعية هو تغير مركز المرأة، و اكتسابها المكانة الاجتماعية، هذه المكانة التي تفتح لها مجالات أخرى، و مسؤوليات و صلاحيات لم تكن تتمتع بها من قبل، و عوامل التغيير في مركز المرأة العربية و دورها هي:

- انتشار التعليم

- العمل خارج البيت

فإن النمو المفرط في المؤسسات البيروقراطية في المجال التربوي و شموله مجالات متنوعة تمتد من الدراسة النظرية و حتى الإعداد المهني أعطى للنساء المهارات اللازمة للدخول إلى سوق العمل و التمتع بدخل اقتصادي مستقل⁴⁸، تخلصت به من التبعية للرجل، فمن قبل و من " خلال دور الزوج

أو الأب الذي يعول الأسرة اقتصاديا، و يقضي جل وقته في العمل و له علاقات خارجية و يمثل أعضاء الأسرة أكتسبه دورا مسيطرا و مهيمن على الزوجة و الأبناء خاصة في النمط التقليدي، و مع خروج المرأة للعمل بعد تقدم الصناعة و التعليم أصبح لها مكانا مساويا للرجل بعد الاستقلال الاقتصادي، و أصبحت شريكة الزوج في القرارات "49، خصوصا إذا كان الرجل متقاعدا عن العمل، فتتقلص أدواره المربوطة بالعمل و فقده لنسبة كبيرة من دخله، و مع تعقد الحياة و تطورها، و تعدد الأدوار، كان على النمط البنيوي الأسري أن يتأقلم مع الظروف و الوضعية الجديدة، و بدأت الأسرة النووية بالظهور و بنسب كبيرة.

IV. البنية النووية للأسرة:

1. تغير النظام الأبوي:

مرّ المجتمع الجزائري و العربي بعدة أحداث كالاستعمار من طرف الدول الأوروبية، و ما يحمله من فرض لنظام اقتصادي رأسمالي، و من ثقافة و حضارة غربية، و في المقابل محاولة لمسح القيم الثقافية العربية الإسلامية، و تفكيك النظام الاجتماعي القائم، و الذي لقي مقاومة من طرف المجتمع الجزائري، و يفسر شرابي هذا النظام " بالصدمة التي تعرض لها المجتمع العربي عند التقائه بالثقافة الغربية منذ نهاية القرن: 19 و بداية القرن: 20، و لكن تلك الصدمة لم تؤدي إلى تغيير القديم بل أدت إلى تجديده دون تغييره "50. و هذا الاصطدام بالحضارة الغربية لم يكن في خطوات بطيئة و متتالية، تساعد على التحول و التغيير بصفة تدريجية فكان بصفة مباشرة، و جاء المستعمر لأخذ خيرات البلاد و تعزيز اقتصاده، دون أن يراعي بشكل كبير تغيير ثقافة المجتمع، و قد تدارك الأمر و لكن في زمن متأخر.

و المقاومة لدى أفراد المجتمع الجزائري، كانت مقاومة للاستعمار و كذا كل ما يحمله هذا المتعدي من حضارة و تطور، و يبقى النظام الأبوي يظهر " بمفهوم ذو ازدواجية نظرية مهمّة لأنه يعبر عن تشكيلة اجتماعية هيمنة ناتجة عن الانتقال من نظام تقليدي إلى نظام حديث دون استكمال عملية التحول أو الانتقال بصفة نهائية، و هو الأمر الذي جعل المجتمع العربي المعاصر يبدو في هذه الصفة المزدوجة التي يجمع فيها بين التقليد و الحداثة دون أن يكون أيّا منها "51.

لدى المجتمع الجزائري و حسب تصوراته أن المجتمع بشكله التقليدي يبقى هو المثالي، و هو الأصل و كل شيء فيه صواب و يضع له مبررات أنه أفضل من العصرية و الحداثة، و نلتمس هذا

الخطاب عند كبار السن حيث يبقى النموذج التقليدي هو المفضل و المطلوب بما فيه من تعاون و تضامن اجتماعي و حماية للفرد، و بساطة العيش دون تعقيد، و دون متطلبات كثيرة، و في المقابل نرى محاولة الشباب خاصة التحرر من قيود الجماعة و البحث عن العصرية و الزيادة في التحضر و الرفاهية، و تكوين مستقبلهم بعيدا عن المجتمع التقليدي، و مع الزمن و تغير الأجيال أصبح " المجتمع يتكون من أفراد سوسولوجيا أحرار من قيود الجماعة لأن العائلة الأبوية لا توجد، و كذلك أقل جزءا، لكن التمثلات الثقافية للنظام الأبوي مع ذلك أيضا موجود في الوقت أين التضامن المحلي في حالة احتياج تسرع القرابة القريبة و البعيدة للظهور"⁵²، و كأنه النظام التقليدي و الأبوي أصبح في الروح، أما المظهر فيأخذ شكلا متحررا و ينتهي للحداثة، دليل ذلك التضامن من خلال المناسبات أين يعود تشكيل النظام القديم و يعود الأمر للذكر الأكبر أو الأب، كما للأفراد الاستعداد لتشكيل النظام التقليدي و الأسرة الممتدة عند أي ظرف طارئ، لأنه خلفية و مرجعية ثقافية مقبولة و محافظ عليها في الذاكرة الجماعية للمجتمع.

و في " الواقع أن الأسرة في المجتمعات العربية لا تزال في عمقها أسر أبوية يتمتع فيها الرجل بسلطات معتبرة تتيح له سيطرة و نفوذ على المرأة و الأطفال، رغم التغيرات التي تعرضت لها بفعل التصنيع و التوسع و الاندماج بقوة في النظام الرأسمالي العالمي بكل قيمه المادية و الثقافية"⁵³. و تساهم عدة عوامل أخرى تعمل على الابتعاد عن هذا النمط التقليدي، و تغيير شكل و تركيب الأسرة، و بدأت تظهر أنواع أخرى بديلة عن العائلة الممتدة.

2. الأسرة النووية:

من أحد المظاهر و المميزات للمجتمعات الحديثة، و المعتمدة على العمل الصناعي، تفكك العائلة الممتدة و استقلال أبنائها المتزوجين في تشكيل أسر زواجية، و من العوامل التي ساعدت هذا التفكك هو انتشار النزعة الفردية و الاهتمام بالمصالح الخاصة، و ساعد على ذلك نظام الملكية و القوانين و الأفكار الاجتماعية العامة المتعلقة بسعادة الفرد، و كذلك يظهر هذا النوع من الأسر كنتيجة للحراك الاجتماعي و الجغرافي⁵⁴، و يتميز هذا النموذج الأسري بعدم وجود أجيال متعدّدة، و تقتصر على جيلين فقط يعيشون في بيت واحد، و " هي الجماعة المكوّنة من الزوج و الزوجة و أولادها غير المتزوجين الذين يقيمون في مسكن واحد"⁵⁵، فهي أصغر وحدة قرابية في المجتمع، و تتميز بنمط معين من العلاقات الاجتماعية و التفاعل الحدود نتيجة تعدد الأدوار، و انتشار الفردانية كحتمية تعقد الحياة

و صعوبتها و الانتقال من البناء الممتد إلى البناء النووي هي ظاهرة علمية تميز بها العالم الحديث و البلدان المتطورة و عرفت في البلدان المتخلفة و العالم الثالث خاصة في المناطق الصناعية، و المدن الكبرى و المعروفة بالتجارة، و ما يسودها من التنوع الوظيفي، و التخصص في العمل، و انتشار التعليم.⁵⁶

و بالنسبة للروابط الاجتماعية بين أعضاء الأسرة النووية تميز عن ما هو في العائلة الممتدة من سيطرة الجد أو الأب على باقي الأبناء و زوجاتهم و أحفادهم، و تضمحلّ مركزية السلطة و "يختم الجو الديمقراطي عامة على الأسرة النووية، و ذلك لتساوي منزلة الزوج مع منزلة زوجته... و مما يزيد ديمقراطية الأسر النووية عدم تعرض الزوج للقيود التي تفرضها عليه سلطة الأقارب منها سلطة الجد أو الأخ"⁵⁷، و توزع السلطة بالتساوي يكون نتيجة الدور الفعال الذي تقوم به المرأة خاصة في مجتمعنا الجزائري و ما يعرف بالدور الشائئ، أي العمل داخل البيت و خارجه، و ارتفاع المستوى التعليمي لدى الزوجين.

و ظهرت عدة أشكال للأسرة النووية التي تعكس التعقيد الكبير في الحياة العصرية، و الضغوط المتزايدة على الأفراد و نذكر منها:

أ- الأسرة النووية المعيارية: و تتألف من زوج و زوجة، و ما لهما من أبناء يشتركون معا في معيشة منزلية واحدة، و يعمل الزوج لكسب قوت الأسرة و تدير الزوجة أعمال المنزل.

ب- الأسرة النووية الشائئية: تتألف من زوج و زوجة بلا أطفال و أحدهما أو كلاهما يعمل لكسب مادي.

ج- الأسرة ذات الشريكين العاملين: كلا الزوجين من بدء زواجهما له عمل تكسبي.

د- الأسرة ذات الوالد الواحد: (عادة تظم هذه الأسرة أطفالا في سن ما قبل المدرسة أو في مراحل تعليمية).

و تنشأ هذه الأسرة نتيجة الطلاق، الهجر، أو الانفصال و عادة لا تلقى الأسرة أي تعويض مادي من الوالد الثاني.

هـ- الزوجان متوسطا أو متقدما العمر: الرجل في هذه الأسرة هو العائل و الزوجة تعمل بالمنزل (الأطفال في هذه الحالة قد تركوا الأسرة، إما التحقوا بالجامعات أو تزوجوا و كونوا بدورهم أسر منفصلة).

- و- الأسرة التي خرجت فيها الأم تطرق باب العمل: تنظّم الزوجة إلى القوى العاملة عند التحاق الأطفال بالمدارس أو عند تركهم في منزل الأبوبين.
- ز- الأسرة متشابكة الأقارب: و هي أساسا تضم بيوتا لأسر نووية، أو لأفراد متزوجين و تضمهم حدود جغرافية متلاحقة، و يضمهم نطاق اقتصادي و اجتماعي واحد يتبادلون فيه السلع و الخدمات أو أنها تتألف من مجموعة مختلفة من الأشكال الثانية المذكورة سابقا.
- ح- أسر الزواج المتكررة: كلا الزوجين فيها يكون قد سبق له الزواج و الطلاق مرة أو أكثر كما أنها تضم أطفالا من زواجا السابق أحيانا من الزواج الحالي و يعيشون معا.⁵⁸
- كل هذه الأنواع تفسّر و تكون كمظهر للحياة الحضرية و العصرية، و التي تتميز عدة أزمات و صراعات داخل البيت الواحد، و بين أعضاء الأسرة الواحدة، و لعل السبب المباشر للتخلي عن الأسرة الممتدة هو " الأزمة الحادة للسكن في سنوات الثمانينات و التسعينات التي تفسّر شدة الطلب لمنفذ قرار العائلة المركبة بالانفصال و التحرّر "59، خاصة بعد كبر الأبوبين في العمر، و تأخذ الأمراض منهم القسط الكبير من حياتهم فيتمنون التمتع بالهدوء، الذي لا يجدونه عند العيش مع الأجيال المتنازلة، و يزيد الاختلاف الثقافي في حدة الأزمة و الصراع بين جيلين لا يحملان نفس الطموح و القيم و المعايير التي تغيرت مع مرور الزمن.

خاتمة:

الإشكالية الكبيرة التي تواجه المختصين في علم الاجتماع هي: هل المجتمع الجزائري ريفي أم حضري؟ و هل المدينة يغلب عليها الطابع الحضري أم هي مريقة؟

لا نحاول الإجابة عن هته الإشكالية، وإنما نضع للمتقاعد أو للفرد الجزائري صورة كهضو في الأسرة و كرب لهذه الخلية الأساسية للمجتمع، و المحيط الاجتماعي له، فالهيمنة الذكورية في المجتمعات العربية لها تأثير على نمط عيش الأسرة و حركيتها، و مكانة الأب فيها كان متقاعدا أم عاملا، و للعائلة الممتدة ثقافة مختلفة عن ما هي عليه الأسرة النووية، و التي تعطي أهمية كبيرة لقرار الرجل الأكبر فالأكبر، و التي ترسخها القيم و العادات و التقاليد عبر الأزمنة عن طريق التنشئة الاجتماعية للأبناء.

إلا أنه هناك تغيير بمس الأسرة، و التي نسب كبيرة منها تحوّلت من ممتدة إلى نووية مما يؤثر على العلاقات بين أعضاء العائلة ليصبح الأب يُنظر إليه بنظرة أخرى مختلفة عما كان يُنظر إليه في الممتدة و تصح القيمة المادية لها تأثير كبير زيادة على التحرر و البحث عن المصلحة الشخصية مما يساهم في تفكك الروابط الاجتماعية.

و رغم التغيير الاجتماعي و تحوّل الأنظمة الاقتصادية و المرور من الزراعة إلى الصناعة و رواج التجارة إلّا أن الأفراد و مع ملاحظة حياتهم اليومية، تبقى بعض القيم الدينية و المعايير الاجتماعية تحكم سيرورة حياتهم و نمط معيشتهم.

- ¹ BENSAIL B, la psychiatrie aujourd'hui, office des publications universitaires, Alger, p : 223.
- ² سلسلة الوصل، التغييرات الأسرية و التغييرات الاجتماعية، ج1، العدد: 2، منشورات كلية العلوم الإنسانية و الاجتماعية، جامعة الجزائر، 2005-2006، مقال لدلاسي أحمد، ص: 210.
- ³ BOURDIEU. P, la domination masculine, Seuil, France, septembre, 1998, p : 87.
- ⁴ Ibid. p : 92.
- ⁵ ADDI. L, mutations de la société algérienne, famille et lien social dans Algérie contemporaine, Découverte, Pais, 1999, p : 44.
- ⁶ www.egitemag.com.
- ⁷ عالم الفكر، الأسرة في الوطن العربي: من الأبوّة إلى الشراكة للعايشي عنصر، مجلد 36، يناير- مارس 2008، ص: 287.
- ⁸ ADDI. L, op.cit, p : 15.
- ⁹ النيف: الأنف، تستعمل الكلمة لتعني الشرف و العزّة. الحرمة: الشرف.
- ¹⁰ ADDI. L, op.cit, p : 13.
- ¹¹ عالم الفكر، مرجع سابق، ص: 287 عن: PAHL. J, money and mariage, Maclimillian, London, 1989, pp : 168, 175.
- ¹² نفس المرجع، عن: المستقبل العربي، الأسرة العربية في الوطن العربي، محاولة نقدية، للظاهر لبيب، السنة: 27، العدد: 308، 2004، ص ص: 103، 128.
- ¹³ محمد أحمد بيومي، عفاف عبد العالم ناصر، علم الاجتماع العائلي، دراسة التغييرات في الأسرة العربية، دار المعرفة الجامعية، مصر، 2003، ص: 22.
- ¹⁴ عبد القادر القصير، الأسرة المتغيرة في مجتمع المدينة العربية، دراسة ميدانية في علم الاجتماع الحضري و الأسري، دار النهضة العربية، ط1، لبنان، 1999، ص: 54.
- ¹⁵ ADDI. L, op.cit, p : 43.
- ¹⁶ محمد عاطف غيث، علم الاجتماع القروي، دار النهضة العربية للطباعة و النشر، بيروت، 1967، ص: 105.
- ¹⁷ عبد القادر القصير، مرجع سابق، ص: 57.
- ¹⁸ محمد بشير إقبال، و آخرون، ديناميكية العلاقات الأسرية، دراسة عن الخدمة الاجتماعية و رعاية الأسرة و الطفولة، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، بدون سنة، ص: 28.
- ¹⁹ محمد أحمد بيومي، مرجع سابق، ص: 37.
- ²⁰ محمد أحمد بيومي، مرجع سابق، ص: 282.
- ²¹ JAROSZ. L, vieillesse et vieillissement en Algérie , enquête sur l' hospitalisation on géronto- psychiatrique), Hydra, Alger, office des publications universitaires, 1983, p : 32.
- ²² سلسلة الوصل، مرجع سابق، مقال لمصطفى زايد، ص: 15.
- ²³ محمد عاطف غيث، مرجع سابق، ص: 273.
- ²⁴ نفس المرجع، ص: 266.
- ²⁵ نفس المرجع، ص: 273.

- 26 سلسلة الوصل، مرجع سابق، مقال لمحمود بوسنة، ص: 9.
- 27 عبد القادر القصير، مرجع سابق، ص: 63.
- 28 إقبال محمد بشير، مرجع سابق، ص: 63.
- 29 حسن ملحم، التحليل الاجتماعي للسلطة، دحلب، الجزائر، 1993، ص: 20.
- 30 مصطفى الخشاب، دراسة المجتمع، مكتبة الأجلو، القاهرة، 1977، ص: (240، 241).
- 31 عالم الفكر، مرجع سابق، ص: 30.
- 32 عبد المنعم نور و آخرون، دراسات في المجتمع العربي، اتحاد الجامعات العربية، طر، الأردن، 1980، مقال لمجد الدين عمر خيربي بعنوان: العائلة و القرابة في المجتمع العربي، ص: 201.
- 33 عالم الفكر، مرجع سابق، ص: 312.
- 34 محمد عاطف غيث، مرجع سابق، ص: 330.
- 35 سلسلة الوصل، مرجع سابق، مقال لمحمود بوسنة، ص: 9.
- 36 ADDI. L, op.cit, p : 47.
- 37 Rapport national sur le développement social, Copenhague, Algérie, mars, 1995, p : 9.
- 38 محمد أحمد بيومي، مرجع سابق، ص: 31.
- 39 محمد عبد المنعم نور و آخرون، مرجع سابق، ص: 182.
- 40 سلسلة الوصل، مرجع سابق، مقال لمحمد بومخلوف، ص: 103.
- 41 نفس المرجع ، ص: 105.
- 42 سلسلة الوصل، مرجع سابق ، ص: (107-111).
- 43 www.ONS.dz.
- 44 سلسلة الوصل، مرجع سابق، ص: 311.
- 45 محمد أحمد بيومي، مرجع سابق، ص: 284.
- 46 محمد عبد المنعم نور و آخرون، مرجع سابق، مقال لمجد الدين خيربي بعنوان: العائلة القرابية في المجتمع العربي، ص: 209.
- 47 إحسان محمد حسن، العائلة و القرابة و الزواج، دراسة تحليلية في تغيير نظر العائلة و القرابة و الزواج في المجتمع العربي، دار الطليعة، طر، لبنان 1985، ص: 82.
- 48 محمد عبد المنعم نور و آخرون، مرجع سابق، ص: 208.
- 49 محمد أحمد بيومي، مرجع سابق، ص: 248.
- 50 عالم الفكر، مرجع سابق، ص: 288.
- 51 نفس المرجع ، ص: 288.
- 52 ADDI. L, op.cit, p : 15 .
- 53 عالم الفكر ، مرجع سابق، ص: 310.
- 54 محمد أحمد بيومي، مرجع سابق، ص: 248.
- 55 محمد عاطف غيث، مرجع سابق، ص: 105.
- 56 محمد عبد المنعم نور و آخرون، مرجع سابق، ص: 195.
- 57 عبد القادر القصير، مرجع سابق، ص: 54.
- 58 إقبال محمد بشير، مرجع سابق، ص: 18.
- 59 ADDI. L, op.cit, p : 54 .